رسالة إلى صديقي الذي رحل

لا تاريخَ،
ولا عنوانَ...
فقط الفراغُ بيني وبينك.

لم تسعَ لِذكرى،
ولا رفعتَ رايةَ اسمك.
كنتَ تعمل بصمتٍ،
وتدخّن أكثر مما ينبغي،
وتبتسم كأنك اعتذرتَ للعالم سلفًا عن وجودك فيه.

قلتَ لي ذات مرّة:
"من أنا لأخلّف أثرًا؟
أنا لستُ نابليون".
وأنا أقول لك اليوم:
صدقتَ...
لكنك كنتَ ما لم يكنه نابليون قطّ:
هادئًا، نقيًّا، لا تطلب من الدنيا أكثر مما تعطي.
لم تكن لك خطبٌ،
ولا أطفالٌ يحملون اسمك،
لكنّك كنتَ وزنًا خفيفًا على الحياة،
وثقيلًا في غيابك.

أتذكّرك الآن،
تسند ظهرك وتنظر...،
بعينين باسمتين،
وتراقب كل شيء دون أن تُدين أحدًا.

رحلتَ كما عشت:
بلا ضجيج،
ولا رجاء.

لكني، رغماً عنك،
سأحفظ لك هذا الصمت.
سأكتبه كما هو، دون أن أجمّله،
لأنك لم تحتَج إلى زينةٍ لتكون صادقًا.

نمْ الآن،
فأنا ما زلتُ هنا،
أحمل صوتك الخافت في رأسي،
كما يُحمل الجمرُ في اليد دون أن يُرى.

رحلتَ، وانسدلَ الستارُ...
فإلى لقاءٍ قريب،
في عالمٍ يقطنهُ من تُريد،
لا موتَ فيه يُقصي،
ولا عمرَ فيه يُبيد.

قيس